الأهرام

المصدر: الخليج

التاريخ : ٧ مارس ٢٠٠٥

# حمل لبناني وسط ذئاب مهتاجة

(I)

من ينزل إلى ساحة الشهداء في بيروت هذه الأيام، سيعاين مشهداً لا يصدّق : شبان وشابات في العشرينات من كل الأطياف والطوائف، يتعايشون في خيم مشتركة، ويعيشون كرنفال وحدة وطنية لم يكن ليخطر على بال قبل أسابيع قليلة.

فجأة تبخّرت الطائفية السياسية. فجأة تحطمت الحواجز النفسية. فجأة تم الإعلان عن انتهاء المجابهة الدموية القاتلة بين الحروب الصليبية وحملات الجهاد.

على مرمى حجر من الخيم الصفر والبيض، التي تذكّر كثيراً بخيم كييف الأوكرانية التي انطلقت منها الشرارة الديموقراطية الشهيرة، تقف الراهبات المسيحيات إلى جانب الفتيات المحجبات المسلمات حول ضريح الرئيس الراحل الحريري. كل منهن ترفع الصلاة وفق تعاليم دينها. وفق مفاهيمها الخاصة عن الطريقة التي يقرر فيها الله تعالى التجلي في العالم.

ومع ذلك، ثمة وحدة روحية حقيقية هنا.

لم يحدث في تاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية قبل 1400 عام، ان برز مثل هذا المشهد أو تحققت مثل هذه الوحدة الروحية. حتى في ذروة التضامن الإسلامي – المسيحي في مصر إبان ثورة حزب الوفد الاستقلالية في النصف الاول من القرن العشرين، كانت الوحدة الوطنية تقتصر على المادة ولم تتمدد إلى الروح. وهكذا تعانق الهلال والصليب (وهذا كان شعار الوفد)، لكن هذا العناق لم ينتقل من النضال السياسي المشترك ضد البريطانيين إلى الصلاة الروحية المشتركة.

ظاهرة الصلاة المشتركة جديرة بدراسات عميقة. وكذا ظاهرة انكسار الجليد الطائفي بين الشبان في ساحة الشهداء. كلتاهما تُعدّ تأسيساً لأسطورة. وكلتاهما مؤشر على ولادة جديدة لشيء جديد: الهوية الوطنية اللبنانية.

لكن، هل يملك هذ المولود مقومات الحياة والاستمرار؟

(II)

منذ اللحظة الأولى التي نطرح فيها هذا السؤال، تنفجر في ذهننا صورة واحدة : حمل صغير وديع تشاء ظروفه العاثرة ان تلده امه وسط قطيع من الذئاب المهتاجة.

الهوية الوطنية اللبنانية هي الان هذا الحمل المتوحد.

اما الذئاب فحَدث ولا حرج. إنها جحافل تكاد لا تنتهي.

على رأس هؤلاء، يقبع الزعماء السياسيون والدينيون للطوائف والمذاهب. هؤلاء لا يمكن بأي حال ان يقبلوا استمرار ظاهرة ساحة الشهداء. وإذا كانوا يقبلون اليوم، فلأنهم لم يحققوا بعد اهدافهم السياسية.

لكن في اللحظة التي تتحقق فيها هذه الأهداف، سيبدأون حملة مشتركة لا هوادة فيها لإعادة كل شاب وشابة لبنانية إلى قطيعهما الطائفي.

الوحدة الوطنية اللبنانية ستتحقق هنا، ولكن بالمقلوب : بدلاً من شبان يقفزون فوق الانتماء الطائفي إلى الانتماء الوطني، كهول من كل الطوائف يتّحدون لذبح الانتماء الوطني قبل ان يرى النور.

هذا التطور حدث بحذافيره قبل 30 عاماً بالتمام والكمال. فحين رأى زعماء الطوائف أن الشبان والشابات آنذاك بدأوا يندمجون في مواكب مشتركة مطالبين بلبنان ديموقراطي جديد، قرروا نسف المعبد على من فيه.

كتب كريم بقرادوني أحد قباطنة الطوائف (في «الوطن الصعب والدولة المستحيلة») معترفاً : «حين شاهد بيار الجميل، زعيم حزب الكتائب، الشبان المسيحيين ينضمون الى الشبان اليساريين المسلمين في تظاهرة واحدة، قرر إشعال الحرب الأهلية».

وهذا التطور يمكن ان يتكرر الآن، حين سيجد الزعماء الدينيون والسياسيون الطائفيون أن من مصلحتهم الاندراج في «وحدة طوائفية» ضد «الوحدة الوطنية» التي تترعرع براعمها الآن في ساحة الشهداء.

بيد ان المعوقات أمام وحدة اللبنانيين ليست محلية فقط: هناك العديد من القوى الإقليمية التي لها مصلحة قصوى في إبقاء اللبنانيين منقسمين ومبعثرين.

فثمة، مثلاً، قوة إقليمية عربية لا تؤمن أصلاً بالتعايش الحضاري الإسلامي– المسيحي. وثمة قوة عربية أخرى لا تجد مصلحتها إلا بمواصلة إشعال الحرائق بين الطوائف.

ثم هناك دوماً وأبداً «إسرائيل»، التي يقوم مشروعها الإقليمي برمته على نسف الحلم الوطني اللبناني الحضاري، وعلى إعادة رسم خرائط الهلال الخصيب العربية لإقامة دويلات طائفية متصارعة، ومتقاتلة، ومتذابحة إلى الأبد.

(III)

هل يعني كل ذلك ان الهوية الوطنية في لبنان محكوم عليها سلفاً بالإعدام؟

ليس تماماً.. هناك العديد من العوامل التي لم تكن متوافرة من قبل، والتي تصب في مصلحتها:

– إجماع الجيل الجديد اللبناني على رفض «الفتنة» والحرب الأهلية وثقافة الموت، ورغبته العارمة في الوفاق والسلام وثقافة الحياة. وهذا بالطبع عامل بالغ الاهمية

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

في التاريخ وفي صنع التاريخ. ويكفي ان نتذكر هنا ان خوف فرنسا وألمانيا من تكرار الحربين العالميتين الاولى والثانية، هو الذي دفعهما في الدرجة الاولى إلى اتخاذ ترتيبات السلام التي أدت في النهاية إلى ولادة الاتحاد الاوروبي.

- انتهاء الأنقسام الحاد والمدمر في الخطاب السياسي اللبناني بين الهوية اللبنانية والهوية العربية. الهوية اللبنانية المنفتحة وغير العنصرية لم تعد «غريبة» عن الشبان المسلمين، والعروبة الديموقراطية والحرة لم تعد «عجيبة» عن الشبان المسيحيين. وهذا على أي حال تكرّس في نصوص دستور الطائف.

– وجود غطاء دولي قوي للهوية الوطنية (حتى الآن على الأقل!)، عبر الدعم الغربي العام لتحويل لبنان إلى منارة ديموقراطية للشرق العربي. وبالطبع، هذه المنارة الديموقراطية ستكون مستحيلة إذا ما كان زجاجها متكسراً على أسس طائفية ومذهبية.

كل هذه المعطيات تفتح كوة امل للحمل الصغير بأن ينجو بريشه من بين أنياب الذئاب الطائفية.

بيند ان هذا يتطلب، اول ما يتطلب، بروز قيادات شابة جديدة تحول الوطنية اللبنانية من حلم رومانسي إلى برنامج سياسي، وأحزاب عابرة للطوائف، وقوة ضغط وطنية.

فالصلاة الروحية المشتركة جميلة وتاريخية. لكنها من دون قوة مادية سياسية تردفها، ستبقى صلاة في الهواء وللهواء.

والتاريخ، بالمناسبة، يعج بهواء الأنبياء غير المسلحين الذين ذهبوا ضحية القتلة المسلحين.

---

**سعد محيو**

smehio@terra.net.lb

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية